تاريخ الاستلام: 2016/01/15- تاريخ التحكيم:2016/03/17 -تاريخ النشر2016/06/28

مظاهر إنتشار الثقافة العربية الإسلامية في حواضر السودان الغربي خلال القرنين و15-17

د.عبد الكامل عطية

جامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي- (الجزائر)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص:

يندرج هذا المقال ضمن الدراسات المتعلقة بتاريخ التواصل الحضاري بين بلدان العالم العربي وحواضر إفريقيا جنوب الصحراء خلال القرنين 15,17م،حيث يبرز مظاهر التأثير الحضاري للعالم العربي في الحياة الثقافية والأدبية ،ولقد كانت اللغة العربية و الإسلام من أهم الروافد التي ساهمت في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية في الممالك الإفريقية الإسلامية كغانا ومملكة مالى وسنغاي وقد تعدت شهرتها حدودها المتعارف عليها.

Résumé

Cet article fait partie des études sur l'histoire de l'interaction culturelle entre les pays du monde arabe et les civilisations de l'Afrique sub - saharienne au cours des 15ème et 17ème siècles, où se manifestent les aspects de l'influence culturelle du monde arabe dans la vie culturelle et littéraire. En fait, la langue arabe et l'islam étaient des affluents principaux qui ont contribué à la prospérité de la culture arabo-musulmane aux royaumes africains islamiques, tels que le Ghana, le Mali , le Royaume de Songhai, dont leur notoriété a dépassé les frontières reconnues .

مقدمة:

من المعروف أن منطقة السودان الغربي قد تلاحمت في إطارها العربي والإفريقي تلاحما بشريا وثقافيا وثيقا،وذلك بحكم الروابط الجغرافية والتاريخية الأزلية،وهي عوامل ساعدت على تقوية صلات وانسجام وانصهار شعوب المنطقتين العربية والإفريقية،دون تنافر أو تنازع بين المقومات الثقافية العربية والإفريقية،التي نلمسها اليوم في حياة عدد كبير من مجتمعات غرب إفريقيا المعاصرة[1].

كان للإسلام الفضل الكبير في نقل اللغة العربية ومختلف علوم الدين إلى أماكن كثيرة في غرب إفريقيا وخاصة مدينة تمبكتو التي ارتبطت ولادتها وظهورها بدخول الإسلام في المنطقة مع المرابطين الذين حملوا لواء الإسلام على عاتقهم لتعليم المجتمع السوداني معالم الدين الإسلامي ومبادئه وتعريفهم الآداب الإسلامية وقواعد الدين،هذه هي بداية تسرب الثقافة الإسلامية إلى السودان الغربي والتي ستصل ذروتها في ما بعد[2].

ويمكن تقسيم المراحل التي عبرت بها الثقافة الإسلامية إلى مجتمع جنوب الصحراء بصفة عامة والى المجتمع التمبكتي بصفة خاصة إلى مراحل:

المرحلة الأولي: حمل أعبائها الدعاة وسط القبائل والمساجد في المدن،واستمرت هذه المرحلة إلى أواسط القرن الرابع عشر،وكانت ثمرتها تعلم السواد الأعظم أحكام العبادات والمعاملات والسلوك الديني.

المرحلة الثانية: امتازت بتوثيق عرى الصداقة والإخوة بين المشارفة والمغاربة مع السودانيين،فوفد كثير من العلماء إلى المنطقة فأقتفى إثرهم المهندسون المعماريون الذين هم النواة الأولى المعماري العربي في غرب إفريقيا،وإنشاء مدرسة سودانية في مجال العلوم الدينية.

المرحلة الثالثة: تمتاز هذه المرحلة بتوسع مجالات المعرفة وتجاوز الأغراض السابقة لتضيف أغراضا فكرية جديدة أكثر عمقا وإبداعا كالفلسفة والمنطق والتاريخ وأدب الرحلة والإنشاء والشعر،و ابتدأت هذه المرحلة مع نهاية القرن السادس عشر[3].

لقد انتشرت الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي بفضل عدة وسائل أهمها طرق القوافل التجارية،والتجار المغاربة،والطرق الصوفية،والدعاة والمبشرون الأفارقة،غير أن العامل الأهم والذي ساعد في انتشار الإسلام في تلك المنطقة يعود إلى الدين الإسلامي نفسه،فهو ذو نظام اجتماعي راق يدعو إلى المساواة بين الناس لا يقيم وزنا لفوارق اللون أو الطبقة،وإنما الفارقة من خلال ما يفعله العبد من أعمال صالحة،لذلك فان الدين الإسلامي كثيرا ما يوصف بأنه أكثر الأديان ديمقراطية[4].

تقول جلوار ويزنر: « إن الإسلام يجتذب الأفريقيين ،لأن مبادئه لا تنطوي على شئ من العنصرية،فأيا كان لون بشرة الرجل،وأيا كان مركزه الاجتماعي،وأيا كانت حالته الاقتصادية،فإنه يرحب به دائما للصلاة في المسجد والاختلاط بإخوانه المسلمين ،وهو أمر لا تستطيع المسيحية في وجهها العملي أن تدعيه»[5].

ويقول أحد الباحثين الغربيين:« لقد حمل الإسلام المدنية إلى قبائل همجية،وجعل من الجماعات الوثنية المتناثرة أمما...ووسع الأفاق،ورفع مستوى الحياة بخلقه وسطا اجتماعيا أسمى،فسمو الجماعات الإسلامية الثقافي والسياسي مرده بالأساس إلى ديانتها.ولقد ادخل الإسلام فن القراءة والكتابة،وهو بتحريمه شرب الخمر،وأكل لحوم البشر.والأخذ بالثأر،والعادات البربرية الأخرى قد مكن الزنجي السوداني من أن يصبح مواطنا عالميا»[6].

ومن مظاهر انتشار الثقافة العربية الإسلامية في حواضر غرب إفريقيا خلال القرنين و19-15م نجد:

شيوع اللغة العربية:

انتشرت اللغة العربية في حواضر السودان الغربي،جنبا إلى جنب مع تغلغل الإسلام في النفوس بحيث أصبح لزاما على الزنجي الذي اعتنق الإسلام،أن يتقن اللغو العربية،باعتبارها أداة العبادة ومفتاح الولوج إلى عوالم الثقافة العربية الإسلامية،ومن ثم الانفتاح على حضارة هذا الدين الحنيف،وعلى الرغم من أن بعض القبائل الزنجية،المسلمة ظلت متمسكة،بلهجتها الأصيلة منافحة عنها،فإن اللغة العربية،أمكن لها أن تتطور وتنمو في ظل هذه المخفقات لتغدو لغة المثقفين والفقهاء الذين أدلوا بدلوهم في إخصاب التفاعل الحضاري والثقافي[7].

لقد اهتم سلاطين السودان الغربي (مالي وسنغاي الإسلامية) بالعلم والعلماء ويذكر أن سلطان مالي منسى موسى وولي عهده كان يتقنان العربية قراءة وكتابة وحديثا وقد عمل على جعل اللغة العربية اللغة الرسمية إلى جانب اللغة المحلية[8].

واللغة العربية بصفتها اللغة التي يقرأ بها القران الكريم وتدرس بها تعاليم الدين وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم،لذا كان تأثيرها عميقا في لغات مناطق غرب إفريقيا وبخاصة لغة السنغاي التي تصل عدد كلمات اللغة العربية المستخدمة فيها إلى ما يزيد على 270 كلمة.أما اللغة الفلانية والهوسا بغرب إفريقيا فإن العربية فيهما ظاهرة مع قليل من التحريف الذي مرده اللهجة المحلية، وتعتبر اللغة العربية وتعلمها عند الأفارقة واجبا دينيا على كل مسلم تأكيدا لاصالة الثقافة الإفريقية التي امتزجت فيها اللغة بالدين[9].

وقد ساعد على انتشار اللغة العربية في إفريقيا عامة وإفريقيا جنوب الصحراء خاصة،عدم جواز ترجمة القرآن وكتابته بغير اللغة العربية التي نزل بها، فضلا عن عدم جواز قرأته بغير اللغة التي نزل بها وهي اللغة العربية.ولذا فإن كل إفريقي حباه الله بالإسلام، وجب عليه حفظ سور من القرآن الكريم يصلي بها،ثم معرفة معاني تلك السور وما يتعلق بأحكامها حتى ل

يكون إسلامه سطحيا دون فهم لمحتوى آيات القرآن الكريم[10].

انتشار المذهب المالكي:

أعجب مسلمو السودان الغربي بالمذهب المالكي،وهو مذهب المغاربة الذي آثروه على المذاهب الأخرى منذ ردح من الزمن،إن ترحيب أهل السودان بهذا المذهب يعتبر مظهر من مظاهر الإتلاف بين الجانبين.إن المذهب المالكي ظل دائما أداة لم شعث الشعوب الإسلامية في السودان الغربي،والأمة العربية الإسلامية[11].

فقد تصادف أن كان لقاء السودانيين مع الإسلام بفضل أهل المغرب المالكيين،فأحب أهل السودان الإسلام ،وساروا في ركاب الذين جاؤوهم به.ولأن المذهب المالكي كما يقول الأستاذ – عمر الجيدي- مذهب عملي يعتد بالواقع ،ويأخذ بأعراف الناس وعاداتهم،ويتمشى مع طبيعة الفطرة في بساطتها ووضوحها دون تكلف أو تعقيد.فقد ساهم هذا العامل في ترسيخ المذهب المالكي ببلاد السودان[12].

وحتى عندما تطورت الثقافة الإسلامية بعض الشئ بالمنطقة خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي. وأخذ أهل مالي يتعرفون على المذاهب السنية الأخرى ويتبينون الاختلافات بينها،وجدناهم أكثر تشبثا بالمذهب المالكي وأكثر تعلقا به[13].

ومن الفقهاء المالكية البارزين في هذه الديار نجد:

الفقيه العاقب بن عبد الله الأنصمني المسوفي[14].

الفقيه الشيخ عبد الله بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن على بن يحي الصنهاجي[15].

الفقيه احمد بابا التمبكتي[16].

مراكز التعليم:

اقترن تاريخ الحياة الثقافية في السودان الغربي بمدينة تمبكتو التي كانت،بصدق،قلب الحركة الفكرية النشطة في المنطقة،والتي امتد إشعاعها العلمي إلى أرجاء واسعة عمت "كانم" و" السنغال" و"النيجر"،وذلك بفضل توافد التجار والعلماء عليها من عرب مغاربة وأندلسيين ومصريين وغدامسيين وطرابلسيين وغيرهم من سكان شمال إفريقيا والأقطار الإسلامية المعاصرة.وقد وحد العلماء وأهل الفكر تشجيعا من أهل تمبكتو وملوكها الذين أغدقوا عليهم بسخاء،الأمر الذي أدى إلى بلورة حركة علمية وأدبية واسعة النطاق لم يعرف السودان الغربي لها مثيلا [17].

أصبحت المساجد في تمبكتو مراكز للتعليم، وقد ألحقت بها حجرات لتعليم الأطفال وطلاب العلم،وكانت الدروس تلقى فيها طوال اليوم،ولا تنقطع إلا في أوقات الصلاة،ويستمر التعليم والتدريس فترة من الليل على ضوء الحطب[18].ومن المنارات العلمية التي كان لها دور بارز في نشر الثقافة العربية الإسلامية في تمبكتو نجد:

المسجد الكبير بتمبكتو(جينكير بيري) الذي تم بناؤه من قبل السلطان منسى موسى 1312-1337م بعد عودته من الحج،ومسجد سيدي يحي ويعد أول مسجد بني في مدينة تمبكتو في القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي . ويقال أنه شيد على ضريح رجل من العلماء الصالحين قدم من المغرب الأقصى،يدعى سيدي يحي[19]

وقد لعبت هذه المساجد دور كبير في نشر الثقافة العربية الإسلامية في حواضر السودان الغربي.غير أنني هنا سأتطرق بشي من الشرح لأهم هذه المرافق التعليمية في تمبكتو وهي:

جامعة سنكوري:

كانت هذه الجامعة تتصدر منارات العلم والعبادة،ويذكر صاحب كتاب تاريخ السودان عبد الرحمن السعدي أن الذي قام ببنائها سيدة غلالية فاضلة،كانت ذات ثروة وحسب ونسب،وقد حدد بناؤها القاضي العاقب عام1578م وبلغت هذه الجامعة أوج ازدهارها في عهد إمبراطورية سنغاي زمن الأسقيا الحاج محمد الكبير.1492-1528م وقد ذاع صيتها بما بلغته من مستوى علمي رفيع،وجعلت من مدينة تمبكتو عاصمة من عواصم الدين والعلم والأدب في بلاد السودان[20].

وقد انفتحت هذه الجامعة على العديد من مراكز العلم في الأندلس والشمال الإفريقي ،في فاس ومراكش وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها من مراكز الحضارة،حيث كان التشابه واضحا بينها وبين جامعة القرويين بفاس،في التدريس وأساليبه وفي المناهج التي كانت تدرس في فاس وتمبكتو.كما توافد طلاب منها إلى مدينة فاس من أجل التزود بالعلم.وما رحيل القاضي —كاتب موسى- إلى مدينة فاس لتعلم العلم في عهد مملكة مالي إلا دليل واضح على الامتزاج الحضاري بين جامعة سنكري ونظيراتها بالشمال الإفريقي[21].

المحاضر : (الجامعات البدوية المتنقلة).

بحلول القرن السابع عشر تقريبا،صارت الحركة الثقافية تتجه من المدن إلى البوادي والأرياف،وذلك نتيجة للتحولات الجديدة التي شهدتها المنطقة. وصار يفد على هذه المحاضر جموع الطلاب من مناطق نائية نسبيا،ولهذا صاروا يسمون — تلاميذ الغربة-،وهم يحلون ويضعنون مع الحي البدوي الذي يوجد فيه شيخ محضرتهم دون أن تتعطل دراستهم.تعد المحاضر مدارس علم ورباط جهاد،ومنارة وإشعاع،كما كانت وعاء للتواصل الفكري والديني على مدى قرون في الصحراء[22].

فهذه المؤسسة كانت نتاجا للظروف الموضوعية التي شهدت انتقال العلماء والفقهاء من المدن إلى الأرياف في كامل أنحاء السودان الغربي ،والدليل على ذلك أن المؤرخ عبد الرحمن السعدي صاحب تأليف تاريخ السودان الذي عاش في الفترة التاريخية نفسها قد ذكر لفظ محضرة أثناء حديثه عن الحياة العلمية بالسودان الغربي[23].

المكتبات:

نشطت المكتبات في تمبكتو بشكل ملحوظ.ويقصد بها المكتبات العامة التي انتشرت في المدن حيث وجد عدد من الذين يمارسون هذه المهنة التي لاقت رواجا وكذلك المكتبات الملحقة بالمساجد والجوامع بالإضافة إلى المكتبات الخاصة لدى العلماء والمثقفين.وقد اهتم عدد من ملوك السودان الغربي باقتناء الكتب النادرة،مهما كلف ذلك من جهد أو مال ونذكر من هؤلاء منس موسى والأسكيا محمد الكبير سلطان مملكة سنغاي[24].

وبالإضافة إلى الخزانات العامة،كانت الأسر الكبيرة في تمبكتو تحرص على أن تقتني أمهات الكتب وتحتفظ بها في خزاناتها الخاصة.وقد كان كثير من العلماء والفقهاء لا يبخلون على طلاب العلم والمعرفة بإعارتهم ما يحتاجون إليه من كتب من مكتباتهم الخاصة التي كانت تحتوي على آلاف الكتب[25].

ومن الأسر التي اقتنت عددا من الكتب القيمة الغالية والمخطوطات النادرة أسرة آقيت.وقد أنجبت هذه الأسرة عددا من الشخصيات العامة من العلماء والفقهاء والقضاة المشهورين في السودان الغربي منهم العالم الفقيه احمد بابا التمبكتي صاحب كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج[26].

حركة التأليف وأعلامها:

لقد ساهمت المؤثرات الثقافية العربية الإسلامية في السودان الغربي في خلق جيل من كبار العلماء السودانيين الذين نالوا شهرة كبيرة ومقدرة علمية أهلتهم إلى منح الإجازات العلمية لبعض علماء الشمال الإفريقي وغيرهم،ولم يقف الأمر عند ذلك،بل وصل إلى درجة مشاركتهم في حركة التأليف في مختلف العلوم المعروفة في عصرهم[27].،ومن مشاهير هؤلاء الذين ساهموا في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية ونشر العلم والمعرفة في مختلف أرجاء السودان الغربي:

- سيد بن عبد المولى الجلالي برز في فن القراءات
- محمج بن عبد الكريم المغيلي الذي كان عالما موسوعيا بمعنى إجادته لعدد من العلوم من بينها التفسير وقد ألف تفسير فاتحة الكتاب والبدر المنير في علوم التفسير.
- المحدث الفقيه احمد بن احمد بن عمر أقيت،الذي كان بارعا في عدد من العلوم من بينها علم الحديث.وكان مادحا لرسول الله صلى الله عليه وسلم،ومدرسا للصحيحين في مسجد سنكوري.
- الفقيه احمد بابا التمبكتي صاحب نيل الإبتهاج.وغيرهم هم كثر أغنى المكتبة العربية الإفريقية من مؤلفاتهم في شتى فنون العلم[28].

والخلاصة من كل ما تقدم أن العلاقة بين سكان بلدان المغرب العربي وحواضر السودان الغربي كانت علاقة إسلامية تاريخية قوية وقديمة وعلمية وأدبية وفقهية وسياسية وتتناول جميع الروابط الاجتماعية.وقد تطورت حقيقة على حسب ما ودر في الوثائق حتى امتدت إلى أقصى الغاية والآثار الدالة عليها مازالت مشهودة وملموسة.أما العلاقة الثقافية فقد حققت بالتعاليم الدينية وتأثير اللغة العربية وازدهارها وتمسك الملوك بالشريعة الإسلامية وبذلهم قصارى جهدهم لنشر الدين والاهتمام بعلماء الإسلام ووطدوا العلاقات الثقافية مع العالم العربي.وكانت اللغة العربية لغة الإدارة والدواوين والمراسلات الأدبية والفقهية وبالطرق الصوفية وكذلك أيضا بالتبادلات التجارية[29].

الهوامش:

(1)- مطير سعد غيث احمد:الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي،ط1،دار المدار الإسلامي،بيروت ،لبنان،2005،ص217.

(2)- عبد الرحمان ميقا:الحركة العلمية في مدينة تمكت،في مجلة دار الحديث الحسنية،العدد:14، 1997،المملكة المغربية،ص329.

(3)- نفسه،ص ص 329-330.

(4)- جميلة إمحمد التكتيك:مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير 1493-1528م،منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية،د ت،ص156.

(5)- عبد السلام أبو سعد:العلاقات الثقافية بين الشعوب الإفريقية وأثر الإسلام واللغة العربية في ترسيخها،أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء،سنة 1998 ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية،ليبيا، ص25-26.

(6)- نفسه،ص26.

(7)- جمال زكريا قاسم:الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية،ص155.

(8)- مبخوت بوداوية:أعلام السودان الغربي مابين القرنين التاسع والعاشر الهجريين، في حولية المؤرخ،العدد:6، 2005،الجزائر،ص179.

(9)- إصلاح محمد البخاري حمودة: انتشار الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ما وراء الصحراء تنبكت- غدامس نموذجا(13-17 م)،دار الكتب الوطنية،2004،ص ص 106.

(10)- نفسه،ص107.

(11)- الطيب الوزاني: مقومات التفاعل الثقافي والحضاري بين دول غرب إفريقيا والمغرب الأقصى معالجة في التركيب، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء،سنة 1998 ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية،ليبيا، ص484.

(12)– احمد الشكري:الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي 1230–1430م،المجمع الثقافي،ابو ظبين1999،ص 229.

(13)– نفسه.

(14)– عبد الرحمان السعدي: تاريخ السودان، ص169.

(15)– نفسه، ص 159

(16)– نفسه،ص158.

(17)– الهادي المبروك الدالي:مملكة مالى الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا،ط1،دار الملتقى للطباعة والنشر،لبنان،2001،ص101.

(18)– شوقي عطا الله الجمل:تنبكت وعلاقاتها بالمغرب قبل حملة المنصور السعدي وتحت الحكم المغربي،اعمال ندوة المغرب وإفريقيا في بداية العصر الحديث،مراكش،المغرب،1992،منشورات معهد الدراسات الإفريقية،الرباط،ص45.

(19)– مبخوت بوداوية:مساجد السودان الغربي ودورها الإشعاعي مابين القرنيين الثامن والعاشر الهجريين، في حولية المؤرخ،العدد 9–10، 2010،الجزائر،ص ص 102–103.

(20)– الهادي المبروك الدالي:المرجع السابق،ص 105.

(21)– نفسه،ص106.

(22)– مطير سعد غيث احمد: المرجع السابق،ص 224.

(23)– نفسه.

(24)– شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق،ص ص 46–47.

(25)– نفسه،ص47.

(26)– نفسه.

(27)– مطير سعد غيث احمد: المرجع السابق،ص 236.

(28)– نفسه، ص ص237، 241 .

(29)- محمد محمود:العلاقة الثقافية بين السكان في شمال الصحراء وجنوب الصحراء الكبرى، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء،سنة 1998 ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية،ليبيا، ص58